تمهيد

عصر العماد الأصفهاني :

عاش العماد الكاتب في عصر الحروب الصليبية ، وهو عصر ذو طابع خاص من الناحيتين السياسية والثقافية . فد ولد العماد في وقت كانت فيه الخلافة العباسية تمر بمرحلة من التدهور السياسي ، وكان السلاجقة هم الحكام الحقيقيون للدولة.

فإن السلاجقة هم الذين نفخوا روحًا جديدة في جثمان الدولة العباسية المنهار ، ويرجع ذلك إلى ثلاثة من أعظم سلاطين السلاجقة هم طغرلبك "429 – 455 هـ " ، وألب أرسلان " 455 – 465 هـ " ، والسلطان ملكشاة " 465 – 485هـ " الذي كانت وفاته إيذانًا بانهيار وتفكك قوة السلاجقة وتبع ذلك انهيار قوة الشرق الإسلامي[1].

في هذه الفترة أخذ الغرب الأوربي في تنظيم عدة حملات لغزو الشرق هي التي أطلق عليها اسم " الحروب الصليبية " ، وذلك من أجل سلب خيرات الشرق والاستيلاء على أراضيه ، ونتيجة ذلك الانهيار والتفكك الذي كان يمر به الشرق . نجح الفرنج في تحقيق هدفهم واستطاعوا إنزال الهزائم بقوة السلاجقة المنهارة واستولوا على عدة مناطق بالشرق مؤسسين أربعة تكايات لهم هي : الرها وأنطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس[2] ، واستمر هذا الوضع إلى أن ظهر على مسرح الأحداث أحد رموز الوحدة الإسلامية وهو عماد الدين زنكي (521 – 541 هـ)

(1) أبو شامة المقدسي : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية 1 / 26 ، دار الجيل ، بيروت .
(2) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص 136 ، ط الآباء اليسوعيين ، بيروت ، 1908م .

الذي نشأ وسط هذا الجو المشحون بالفرقة والانقسام ، وأيقن زنكي أن الحل الوحيد للخروج من هذه الكارثة هو توحيد الجبهة الإسلامية ، وبالفعل أخذ عماد الدين زنكي يجاهد من أجل توحيد الجبهة الإسلامية للصمود أمام العدوان الصليبي ، واستطاع إنزال أول هزيمة ساحقة بالفرنج ، وسقطت في يده أول إمارة صليبية وهي إمارة الرها 539هـ [1] ؛ ليدق بذلك أول مسمار نعش الصليبيين ، وذلك بعد أن بلغ العماد الكاتب العشرين من عمره وأصبح في زهرة شبابه ، وإذا كان عماد الدين زنكي قد قتل بعد استيلائه على الرها بعامين 541هـ ، فإن ابنه نور الدين محمود قام بأمر الجهاد ضد الصليبيين من بعده خير قيام ، واستطاع أن يعيد توحيد الجبهة الإسلامية[2] .

واستطاع أن يصمد أمام الحملة الصليبية الثانية ، ثم أخذ في تصفية إمارة أنطاكية ، ولم يبق منها سوى حصون مهدمة [3] ، فقد استطاع نور الدين محمود تصفية الوجود الصليبي بشمال الشام ، ولم يبق أمامه سوى الصليبيين الموجودين بجنوب بلاد الشام (بيت المقدس – طرابلس) ، ولم يكن أمامه إلا أن يوحد الجبهة الإسلامية بالجنوب حيث يضم إليه دمشق ثم مصر ، وبذلك يحصر الصليبيين في الوسط أو بين شقي الرّحى ، وبالفعل استطاع نور الدين ضم دمشق ، فلم يتردد وأرسل قائده أسد الدين شيركوه وبصحبته صلاح الدين الأيوبي ابن أخت شيركوه إلى مصر ، وبعد صراع استطاع شيركوه أن يتولى وزارة الخليفة العاضد بالله

(1) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص279 .
(2) ابن واصل الحموي : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب 1 / 109 ، نشره د: جمال الدين الشيال ، ط جامعة فؤاد الأول ، القاهرة 1953 م .
(3) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص305 .

الفاطمي 564هـ ، وهو في نفس الوقت قائد جيش نور الدين[1] ، ولكنه لم يستمر في الوزارة طويلا إذ توفى بعد خمسة وستين يومًا ، وبعد ذلك تولى صلاح الدين الوزارة خلفًا لعمه ، ولم تلبث الخلافة الفاطمية أن سقطت ، وبذلك أصبح صلاح الدين طليق اليد في مصر.

وبعد وفاة نور الدين محمود في شوال 569هـ ، أتاحت لصلاح الدين فرصة تأسيس دولة تحمل اسمه وتصبح مصر هي قاعدته ، وفي بلاد الشام جلس الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود والبالغ من العمر إحدى عشرة سنة محل والده في السلطة ، مما أتاح الفرصة للطامعين من الأمراء أن يتلاعبوا بهذا الصبي وأتاح الفرصة أيضًا للصليبيين أن يسترجعوا ما فقدوه من أراضي ، فقد استاء صلاح الدين كثيرًا بعد سماعه بالفوضى والاضطرابات التي عمت مملكة نور الدين بعد وفاته ، كما غضب لما فعله الصليبيون بالبلدان الإسلامية ، لذلك قرر التوجه إلى الشام ؛ لمعاقبة هؤلاء الأمراء الذين فرطوا في دولة نور الدين ؛ وليضع حدًا لهجمات الصليبيين على الممتلكات الإسلامية ؛ ولإعادة توجيه الجبهة الإسلامية وعندما وصل صلاح الدين الشام فتحت دمشق أبوابها له[2] ، وبعد صراع مع الأمراء الطامعين ، استطاع صلاح الدين إعادة توحيد الجبهة الإسلامية تحت رايته ليحمل عبء الجهاد ضد الصليبيين .

كانت حطين هي أولى معارك صلاح الدين الحاسمة ضد الصليبيين 583هـ حيث استطاع من خلالها تصفية الوجود الصليبي بجنوب الشام ، واستعادة بيت

(1) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 29 / 35 ، تحقيق د: جمال الدين الشيال ، ط 1، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر 1964 م.
(2) العماد الأصبهاني : الفيح القسي في الفتح القدسي، ص 15 .

المقدس من أيدي الصليبيين ، مما دفع الغرب الأوربي للدعوة إلى حملة صليبية ثالثة ، والتي تزعمها ثلاثة من أكبر ملوك أوربا هم : ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وفريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، فقد لقى حتفه في بداية هذه الحملة ، وفيليب وريتشارد أخذا يعملان على استعادة بيت المقدس ، ولكنهما فشلا ، ثم اضطر ريتشارد إلى عقد صلح الرملة 588هـ مع صلاح الدين ، وفي عام 589هـ توفي القائد صلاح الدين وهو ابن سبعة وخمسين عامًا لتنقسم مملكته الواسعة بين أبنائه وأخوته وأبناء عمومته[1]، وهكذا أصبح الطابع العام لسياسة الأيوبيين بعد صلاح الدين " يميل إلى مهادنة الصليبيين ويعني هذا أنهم تخلوا عن دورهم التاريخي ليتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية ، رغم جهود البعض منهم في مقارعة الصليبيين . لذا أتى سقوطها في مصر أولاً ثم في بلاد الشام نتيجة بروز قوة جديدة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب هي دولة المماليك "[2] .

فقد عاش العماد أخصب فترة من فترات التاريخ من النشاط السياسي والعسكري والثقافي ، وكثيرًا من الحكام اتخذوا من النشاط الأدبي والعلمي وسيلة لهم في الحرب والسياسة ، ومثال على ذلك ، فقد روى العماد أن السلطان نور الدين طلب منه يومًا أن ينشده أبياتًا في معنى الجهاد .

وهكذا كان عصر العماد الكاتب عصرًا مليئًا بالتيارات السياسية والثقافية المختلفة ، مما أهله أن يلعب دورًا كبيرًا في هذا العصر في النواحي السياسية والثقافية .

---

(1) المصدر السابق : ص 629 – 636 .
(2) د . حسين عاصي : العماد الأصفهاني ص107 .

Obeikan.com

1ـ البيئة الثقافية :

تعتبر " أصفهان " هي بيئة العماد الثقافية الأولى ، فهي ذات شهرة قديمة لها مميزات ثقافية وأدبية وسياسية اختصت بها ، بل وفاقت غيرها من المدن الإسلامية في فترات التاريخ المتعاقبة ، بكوْنها أحد المراكز العلمية الثقافية في القرنين الخامس والسادس الهجري .

واشتهرت بتخريج عددٍ كبير من حفاظ الحديث ، فكان الأديب أوالعالم الأصفهاني لايقتصر على نوع معين من الأدب ، بل كان في حد ذاته دائرة معارف تشمل كل الفنون والعلوم وأنواع المعرفة المختلفة ، وهناك أسباب للنهضة العلمية والأدبية التي امتازت بها أصفهان ، فقد أجمعت كتب التاريخ والأدب على عظمة أصفهان ؛ لصحة هوائها ، وجودة أرضها ، وكثرة خيراتها ووفرة مكاسبها ، واختلاف فضائلها .

وعنها يقول القاضي القزويني : " أصفهان مدينة عظيمة ، ومن أعلى المدن ومشاهيرها . جامعة لأشتات الأوصاف الحميدة ، من طيب التربة وصحة الهواء، وعذوبة الماء وصفاء الجو وصحة الأبدان ، وحسن صورة أهلها وحذقهم في العلوم والصناعات ، حتى قالوا كل شيء استعصى صناع أصفهان في تحسينها عجز عنها صناع جميع البلدان " [1].

هناك العديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت وصف أصفهان ، ونذكر الآن أشهر علماء القرن السادس المقيمين بأصفهان وفترة وجود العماد بها :

(1) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، سلسلة الدراسات الشعبية ، ع77، القاهرة 2003م .

obeikan.com

1. **أبو عبد الله الفراء النيسابوري** : راوي صحيح الإمام مسلم ، وهو شافعي المذهب[1] .
2. **جمال الدين ابن الأخوة الشيباني** : وهو من أفاضل العلماء المقيمين في أصفهان ، وقد ذكره العماد حين ترجم له في كتاب الخريدة وأفاض في الثناء عليه ، حيث أقام أربعين سنة بأصفهان حتى عد من أهلها ، وجامع للعلوم ، ومتفرد بانشاء المنظوم والمنثور[2] .
3. **محمد بن عبد اللطيف الخجندي** : وهو من نسل المهلب بن أبي صفرة من أهل أصفهان وكان رئيسها والمقدم عند السلطان ، ورحل إلى بغداد وتولى التدريس بالنظامية ، كما وعظ بجامع العصر ، وقد لقيه العماد حين مقامه بأصفهان وأخذ عنه[3].
4. **سلمان بن عبد الله الحلواني النهرواني** : كان عالمًا في النحو واللغة ، استوطن في أصبهان ، وأخذ عنه الحافظ السلفي ، وله كتب كثيرة منها " تفسير القرآن " و " القانون في اللغة " وكتاب في القراءات ، وشرح ديوان المتنبي ، والأمالي
5. **أبو المعالي الوركاني الحسن بن محمد بن الحسن الفقيه الشافعي** ، المدرس بنظامية أصفهان نيابة عن أولاد الخجندي ، كان إمامًا فاضلاً ، مناظرًا أصوليًا عارفًا بالأدب .

---

(1) وفيات الأعيان : 1 / 487 .
(2) الخريدة قسم العراق ص126 .
(3) الوافي بالوفيات 3 / 284 .

openkan.com

فأما البيئة الثانية للعماد فهي العراق والشام ومصر " إقليم الوسط " وكانت هذه الأقاليم أكثر البلاد الإسلامية نشاطًا من الناحية الثقافية ، خاصة إقليم العراق حيث بغداد ومدرستها النظامية ، التي بناها الوزير نظام الملك الطوسي وزير آلب أرسلان السلجوقي وابنه ملكشاه . وتوافد إلى المدرسة النظامية العلماء من كل صوب ، وكذلك الطلاب الذين انتظموا في سلك الدراسة بها ، وقد ذاع صيتها . وكان العماد أحد طلابها حيث تعلم بها النحو واللغة والأدب وسمع الحديث وتعلم الفقه والخلاف والأصول . وقد اهتم السلاطين والوزراء ببناء دور العلم والأدب . وكثر بناء المدارس ودور الحديث والفقه ، وبذل الحكام كل ما في وسعهم لتوفير الأساتذة من كل أقطار العالم الإسلامي شرقاً وغربًا . ومن ثم أصبحت عواصم مصر والشام والعراق المشهورة : القاهرة والإسكندرية ، ودمشق وحلب ، وبغداد قبلة القصاد من سائر البلدان المختلفة من العالم العربي والإسلامي في المشرق والمغرب .

ويعتبر عصر الأصفهاني عصر إحياء للثقافة والفكر. حيث تمثل هذا الإحياء في بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، وتشجيع الحكام العلماء ، وتسابقوا في تقريب الفقهاء والحفاظ والقراء ، واعتمدت حركة البعث العلمي والأدبي في هذا العصر على التراث الإسلامي الزاخر في العصور السابقة ، والدافع الرئيس لها هو حماس السلاجقة السنيين لإحياء شعائر أهل السنة ." وجاء السلاجقة ، وكانوا سنيين متحمسين ، فناهضوا الحركات العقلية في الإسلام التي احتضنها الشيعة أعداؤهم المذهبيون ، بعد أن استولوا على مقاليد الحكم في بغداد والشرق جميعًا ، واستولى أتباعهم على الشام ومصر. وكان

للسلاجقة في ميادين الثقافة الإسلامية جولات صادقة مظفرة .وكان أبرز حكامهم اهتمامًا بالعلوم والعلماء والمدارس نظام الملك "[1] .

ويعتبر عصر سنجر وإخوته عصرًا زاهرًا في الأدب والعلم وغيره أكثر من العصور الزاهرة السابقة ، فقد ازداد فيه عدد الكتاب والشعراء والعلماء من الفرس والعرب ، ونبغ فيه من شعراء الفرس جماعة مثل : فريد الدين العطار ، ونظامي ، وعمر الخيام ، وسنائي ، ورشيد الدين الوطواط .

في العراق كان الخلفاء العباسيون ووزراؤهم يقربون العلماء ويشجعونهم بمختلف الوسائل ، وكان من أبرز وزراء العصر وأكثرهم تقديرًا للعلم والعلماء " عمر الدين بن هبيرة " " وكان عالمًا فاضلًا ذا رأي صائب ، وسريرة صالحة ، مكرمًا لأهل العلم ، يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم ، ويقرأ عنده الحديث عليه على الشيوخ بحضوره "[1] .

وألَّف ابن هبيرة كتبًا عديدة ، منها " الإيضاح في شرح الأحاديث الصحاح ".

وفي الشام كان نور الدين معروفًا بشغفه بالعلم والمهتمين به ، وبحبه للفقهاء وأهل الحديث ، وكان يستشيرهم في أمور الدين والحكم ، فمن مشاهير الفقهاء في هذا العصر الذين وفد إليه " قطب الدين النيسابوري " ت 568 هـ . يقول أبو شامة: " فسر به نور الدين وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق "[2] .وبنى له مدرسة كبيرة للشافعية لفضله .

---

(1) د. زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص 76 .
(1) وفيات الأعيان 5 / 277 .
(2) كتاب الروضتين 1 / 124 .

وفي مصر والشام كان صلاح الدين يحفظ القرآن ويروي الحديث ويسمعه من حافظه ، سمع على الحافظ السلفي عالم الأسكندرية ومحدثها في القرن السادس ، "كما جعل له ميقاتًا لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي "[1] ، وجمع في بلاطه جمهرة من العلماء حفظوا مآثره وترجموا له ، وألفوا العديد من الكتب ونذكر من خلصائه " القاضي الفاضل" كان ساعده الأيمن في تدبير المملكة ، وكتب له شاعرنا والقاضي ابن شداد الذي جمع سيرته في كتاب " النوادر السلطانية " .

هذه هي البيئة الثقافية التي نشأ فيها العماد وتأثر بها منذ نضوجه الفكري والأدبي حتى وفاته ، والتي كان من أهم مميزاتها انتشار العلم نتيجة تشجيع الملوك والسلاطين والوزراء للعلم ، واحترام العلماء وتقديرهم ، فكثرت المدارس وكثر العلماء في شتى المجالات .

2- البيئة الأدبية :

لقد امتاز القرن السادس الهجري الذي عاش فيه شاعرنا من الناحية الأدبية بالازدهار والنضج ، فنلاحظ زيادة كبيرة في عدد الأدباء والشعراء والمؤلفين ، كما يتميز بكثرة تأليف عدد من أمهات الكتب العربية التي لا تزال أهم المراجع في التراث الأدبي والإسلامي .

ونرى أن الحركة الأدبية التي امتاز بها القرن السادس الهجري لم تحظ بما تستحق من البحث والدرس ، رغم كثرة ما حظيت به العصور الأخرى ، مثل العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، والعصر الأموي والعصر العباسي ، وفي ذلك يقول دكتور/

(1) كتاب الروضتين 1 / 214 .

زغلول سلام : " ولم تحظ الدراسات الأدبية والعلمية في إقليمي مصر وسوريا خاصة بالدرس لبيان الدور الخطير الذي كانتا تقومان به لحفظ التراث الإسلامي من الضياع بعد أن بدأ يتحول شيئاً فشيئاً من الشرق والغرب ليصب في القلب في إقليم الوسط سوريا ومصر "[1].

فقد اشتهر شعراء وأدباء هذا العصر بقدرتهم على اللعب باللفظ والمعنى والمهارة في إخفاء المعاني بقصد السمر والدعابة ، والإكثار من ألفاظ المديح والإطراء ، وقد كان " هذا اللون من الأدب يجعل الأدباء ينحرفون عن الأنماط والصور القديمة للشعر ، ويبتعدون عن أساليبه وفنونه المعروفة ، كما جعلهم ينفرون من روح البداوة كل النفور ، ورقوا في أدبهم كما رقوا في أخلاقهم وعاداتهم وغلبت ألفاظ المجاملة الدمثة "[2] .

فكانت موضوعات الأدب هي الموضوعات التقليدية للأدب العربي في العصور السابقة ، وظهرت في هذا العصر فنون جديدة ، كما نمت فنون كانت غير معروفة من قبل ، وهي الإكثار من المحسنات البديعية في كتاباتهم . ولما كانت روح العصر وسماته هي حروب متصلة بين المسلمين والصليبيين هذه الحروب هي التي كانت سببًا في ظهور لون جديد من الأدب ، وهو أدب القتال والحث على الجهاد ، والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين ، واسترداد المقدسات الإسلامية الممثلة في بيت المقدس ، كذلك تطور الأدب الوصفي ، فقد كان يسير مع أدب الجهاد جنبًا إلى جنبٍ ، وموضوعاته هي وصف الجيوش وآلات الحرب والقلاع والحصون ، ووصف البلدان والتغزل في محاسنها .

---

(1) د. زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص 167 .
(2) المصدر السابق ص 169 .

obeikan.com

وما زالت الحروب الصليبية نبعًا ومصدرًا لا يجف لموضوعات الجهاد وآلاته في العصر، فقد ألهبت عواطف المسلمين والعرب، وكانت عاملاً هامًا في ظهور هذا اللون الأدبي، وقد امتزج التأليف في الجهاد والحث عليه بالتأليف مثلا في التاريخ ووصف الوقائع والأحداث الكبيرة، مثل كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي " وهو كتاب يؤرخ لفتح صلاح الدين بيت المقدس، وكان صدى هذا الفتح عظيمًا، والفرحة به غامرة، ترددت أصداؤها في نفوس المسلمين في كل مكان. وكان كتاب شاعرنا صورة من تجاوب الأدباء مع هذا الحدث العظيم.

والحق أن الحروب الصليبية كانت بمثابة المنبع الخصب للكتاب والشعراء والأدباء، والمؤرخين، فمنهم من كان يصف المعارك شعرًا، ومنهم من كان يسجلها نثرًا، ومنهم من كان يسجلها في كتب التاريخ واصفًا الوقائع الحربية والأحداث، وسجل أيضًا أدب هذه الفترة معالم الحياة التي عاشها الناس في هذه الفترة العصيبة في التاريخ الإسلامي، وأدباء العصر وشعراؤهم، ويصف أيضًا النكبات التي حلت بالشعب في مصر والشام مثل المجاعات والزلازل.

ونلاحظ ظهور نزعة جديدة عند أدباء وشعراء هذا القرن تتمثل في " اعتزاز الشاعر أو الأديب بالإقليم الذي يعيش فيه، فيمدح مدينته بينما يهجو الأقاليم الأخرى مثل ما فعل العماد حين كتب قصيدة يمدح بها دمشق ويذكر فضائلها، وكما فعل غيره في مدح مصر ونيلها وهوائها وجوها، والقاضي الفاضل مدح مصر وعدد فضائلها وتغنى بها وذم مدن الشام، والعماد يرد عليه معددًا فضائل الشام جاعلاً منها قطعة من الجنة "[1].

(1) العماد الأصفهاني: حياته وفكره وأدبه، زينب حسن إبراهيم، ماجستير 1982، آداب عين شمس،ص 65

ومن أهم موضوعات العصر ما قيل في السيف والقلم ، فقد أكثر الشعراء والكتاب في هذا اللون ، وكذلك عمد الكتاب والشعراء إلى موضوعات بعينها وأهملوا موضوعات أخرى . فقد أكثروا مثلا في وصف الرياض ومظاهر الطبيعة .

وقد امتازت البيئة الأدبية عند شاعرنا بالكتابة ، والخطب والرسائل ، والمقامات التي ظهرت في القرن الرابع الهجري ، وكان لمقامات الهمذاني والحريري أثر واضح في انتشار هذا الفن الجديد وظهوره بين الفنون الأخرى ، وظهر كذلك أدب الأسفار والرحلات ، وأشهرها كتاب " سفرنامه " بالفارسية لناصر خسرو ، قبل هذا العصر بقليل ، ثم كتاب " الرحلة " لابن جبير " ثم بعد ذلك " ابن بطوطة " حيث كان للأدب خصائصه في كل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي .

العماد الأصفهاني : سيرة حياته :

1- مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن عبد الله بن علي بن محمد بن هبة الله بن أُلُه[1] الملقب بعماد الدين الكاتب الأصفهاني [2] ولد بأصبهان في ثاني جمادى الآخرة عام 519هـ - 1125م ، ونشأ بها حيث تلقى تعليمه الأول على المذهب الشافعي ثم التحق بالمدرسة النظامية ببغداد حيث تفقه على يد كبار علمائها في تلك الفترة ، ثم رجع إلى بغداد

---

(1) ألُه : بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء ، اسم فارسي معناه العقاب ، وهو الطائر المعروف انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان 5 / 152 .

(2) ترجمة العماد : انظر ياقوت الحموي " معجم الأدباء " 7 / 81 ، تح : مرجليوث ، مط هندية ، القاهرة ، 1923م .

- ابن خلكان : وفيات الأعيان 5/ 147 ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1977م

- الصفدي : الوافي بالوفيات 1 / 133، نشره المستشرقين الألمان باستنبول 1931م.

- السبكي : طبقات الشافعية 3 / 97 ، ط : المطبعة الحسينية ، القاهرة 1344هـ .

- بروكلمان : تاريخ الأدب العربي 5 / 63 ، ترجمة د . رمضان عبد التواب وراجعه د . السيد يعقوب بكر . دار المعارف 1975 م .

openkan.com

ليعمل بصناعة الكتابة فبرع فيها وذاع صيته وصار ملازماً للوزير عون الدين بن هبيرة ، وزير الخليفة المقتفي لأمر الله العباسي ، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط واستمر العماد يلي هذه الوظائف حتى وفاة الوزير ابن هبيرة عام 555هـ ، فصدرت أوامر الخليفة المستنجد بالله باعتقاله ، فبعث من سجنه إلى عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان حينئذ أستاذ الدار ، قصيدة طويلة يطلب فيها أن يشفع له عند الخليفة في فك وثاقه وإطلاق سراحه . وتحقق له ما أراد ، فأقام في بغداد مدة – كما يقول ابن خلكان – " في عيش منكد ، وجفن مُسهد " [1] ولما ضاق به الحال قرر الرحيل إلى دمشق عام 562 هـ ، حيث تقابل مع القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري الذي كان متوليًا أمور دمشق من قبل السلطان نور الدين محمود وارتبط العماد بالشهرزوري ارتباطا شديدا ، حيث كان يحضر مجالس علمه . وبعد أن عرف الشهرزوري مكانة العماد العلمية ولاه التدريس بالمدرسة النورية عام 567 هـ ، وهي التي عرفت بعد ذلك باسم المدرسة العمادية نسبة إلى العماد الأصفهاني ، وقربه من نور الدين ، وعرفه به ، وسمع قصيدته المدحية التي يقول في مطلعها :

لو حَفِظتْ يومَ النَّوى عهودها ما مَطَلَتْ بوَصْلكُمْ وعودَها [2]

ونال إكرام نور الدين وعُين في دولته منشئاً إلى جانب التدريس بالمدرسة التي نزل فيها ، ثم أصبح مشرفاً على ديوان الإنشاء مضافاً إلى كتابة الإنشاء .

عاش العماد في سعة من العيش ورغده ، ولما توفي نور الدين في عام 569 هـ ، تولى الحكم بعده ابنه الصالح إسماعيل وكان صبيًا فالتف حوله جماعة من الأفراد

(1) وفيات الأعيان : 5 / 147.
(2) الديوان ص 143 .

openkan.com

كان همهم المصلحة الشخصية وتصفية من يقف ضد هذه المصلحة ، يقول العماد :" ولما توفي نور الدين اختلّ أمري ، واعتلّ سري ، وفاض دمعي وغاض بحري ، وعلتْ حسادي ، وبلغ مرادهم أضدادي "[1]

وحينما بلغ الموصل داهمه المرض ، فاضطر أن يمكث فيها ثلاثة أشهر ، فجاءه البشير بسيطرة صلاح الدين على مقاليد الحكم . وكان قد تعرف عليه حينما عمل في الدولة النورية ، كما له سابق معرفة بأبيه نجم الدين أيوب من تكريت فكر راجعًا إلى الشام ، والأمل يحدوه في أن ينال مقامًا محمودًا عنده ويغيظ حاسديه الذين حاربوه ونغصوا حياته .

لقد تحقق حلمه ونال مبتغاه إذ استطاع أن يلتقي بالسلطان صلاح الدين في مدينة حمص، فمدحه بقصيدة طويلة ، وأصبح في الدولة الأيوبية كاتبًا للسر ، ومسؤولا عن ديوان الاستيفاء ، وصحب صلاح الدين ، وشهد أغلي الوقائع الحربية معه ، وكتب كثيرًا من الرسائل على لسانه و وتغنى شعرًا بمناقبه وبطولاته ، وبعد وفاة السلطان صلاح الدين عام 589هـ أفل نجم العماد ، فاختلت أحواله وساءت أموره ، وضعفت مكانته ، وقلت هيبته – قال ابن خلكان : " لم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته ، إلى أن توفي السلطان صلاح الدين – رحمه الله – فاختلت أحواله ، وتعطلت أوصاله ، ولم يجد في وجهه بابًا مفتوحًا ، فلازم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف " [2] .

ويقول ياقوت الحموي : " إنه لزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة "[3] .

---

(1) الفتح بن علي البنداري : سناالبرق الشامي 1 / 159 ، تحقيق : د . رمضان ششن ، ط دار الكتاب الجديد ، بيروت ، 1971م .
(2) وفيات الأعيان : 5 / 152 .
(3) ياقوت الحموي : إرشاد الأريب لمعرفة الأديب، 7 /85 ،(معجم الأدباء) ،القاهرة 1936م .

واشتغل العماد بالكتابة في حكومة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، ولكن سرعان ما طلب الاستعفاء ، وانصرف إلى التصنيف والتدريس فى مدرسته العمادية بدمشق ، حتى وافته المنية بدمشق يوم الإثنين مستهل شهر رمضان سنة 597هـ / 1201م، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر.

2- صفته وأخلاقه وشخصيته :

كان " العماد كوْسجًا . خفيف اللحية وفي عينه عمش. فيه فتور إذا نُظر ولكن إذا أخذ القلم وكتب أتى بالعجائب" [1].

ولذلك قال القاضي الفاضل فيه : "هو كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار"[2] وكان فقيهًا شافعيًا على مذهب الأشاعرة ، ولم يكن له اعتقاد سياسي واضح فهو يراعي في كل الأزمان حق من أعانه وحماه مثل مقام الخلافة ونور الدين وصلاح الدين والقاضي الفاضل ويشكرهم في كل كتبه ، وكان يحب جمع المال فكان مؤتمنًا رحيمًا تحترمه الرجال الذين عاشوا حوله ويفضله الكبراء .

كان يكره تخريب المواريث العلمية والثقافية . والدليل على ذلك أسفه لنهب الكتب الموجودة في خزانة الخلافة الفاطمية ، لا يحب إراقة دم بغير حق وتجزية الرجال بالجزاء العفيف ، كان رجلاً مجتهداً . دليل هذا ما ألفه من الكتب الكثيرة وعمله العلمي مع كثرة انشغاله بالأعمال السلطانية وتدريسه في المدرسة التي تولاها وفي جامع دمشق ، وكان بارعًا في درسه يتزاحم الفضلاء فيه لفوائده وفرائده .

---

(1) د. حسين عاصي : العماد الأصفهاني حياته وعصره ص 28 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1، 1991م .

(2) الصفدي : الوافي بالوفيات 1 / 139 .

obeikan.com

فإن أكثر ما يتميز به العماد هو الأدب وصنعة الإنشاء . ويكثر استعمال الصنائع البديعة في رسائله وكتبه . وقد نقده المؤلفون المتقدمون مثل: الصفدي وغيره [1]، بسبب كثرة استعماله الجناس . ورغمًا عن هذا مدح العلماء كلهم شعر ونثر ، وقال ابن الأثير فيه ، مع كونه مخالفا له في السياسة : " كان كاتبًا مفلقاً قادرًا على القول " [2].

كان القاضي الفاضل أكبر كتاب عهد العماد ، ثم يليه شاعرنا في المنزلة وهو يعترف أيضًا أنه منشيء على طريقة القاضي الفاضل ، ولكنه كان كاتبًا وحيدًا يزاحمه في صنعة الكتابة . ثم إنه كان يفوق على القاضي الفاضل باستعماله اللغة الفارسية مثل العربية في الكتابة ولهذا وصفه المؤلفون بـ " ذي البلاغتين "[3].

3– شعره ورسائله :

قد كان الشعر وسيلته إلى الحظوة التي نالها مبكرًا ، وذلك من خلال مدائحه في الخليفة العباسي " المقتفي لأمر الله من 530هـ إلى 555هـ ". وقال ابن خلكان في ترجمته للعماد : " وله من الشعر والرسائل ما يُغني عن الإطالة في شرحه "، وقال أيضًا إن العماد له : " ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات ونَفسُه في قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دوبيت "[4].

وقال عنه الدبيثي في مختصره : " له شعر غاية في الجودة ، كثير القول والترسل البليغ"[5].

---

(1) المصدر السابق 1 / 54 – 55 ، وانظر السبكي : الطبقات الكبرى 4 / 98 .
(2) ابن الأثير : الكامل في التاريخ 12 / 112 – 113 ، ط : دار الكتاب العربي بيروت 1967م.
(3) البنداري : سنا البرق الشامي ص 67 .
(4) وفيات الأعيان : 5 / 148 .
(5) مختصر الدبيثي ص 122 ، المختصر المحتاج من تاريخ الدبيثي للذهبي ، تحقيق د . مصطفى جواد ، بغداد 1951م – 1963م .

ويقول عنه صاحب الجامع المختصر : " إنه كان سمح القريحة ، جيد النظم كثير القول ، له الترسل المليح والكناية البليغة "[1].

" نظم الشعر وجمعه بنفسه" [2] ، ورتبه قبل سنة 572هـ ، واستنسخه في زمانه أحمد بن عبد الرحمن بن علي المعروف بنشو الدولة .

قال العماد في ترجمته : " شاب مجد للفضل . حريص على تحصيله ، بجملته وتفصيله . وقد كتب ديوان شعري ورسائلي"[3].

اختلف الباحثون القدامى في حجم ديوانه ، فقال: ياقوت الحموي – وهو قريب من عصره – : " إنه في مجلدين"[4].

وتابع الصفدي ابن خلكان في عدد المجلدات وقال: " إنه في أربعة مجلدات "[5].

فقد بلغ شعر العماد المجموع مئتين وثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة في ثلاثة آلاف وخمسمائة بيت . ولكن أثناء إحصائي للأوزان والقوافي وجدت الشعر المجموع ثلاثة آلاف وستمائة وست بيت .

وقد قيل إنه" كان يحفظ شعر البحتري ، ودواوين العرب المشهورة "[6] وقد ساعدته الدراسة والحفظ ومتابعة ما خلفه السلف ، والاتصال بعلماء العصر وأدبائه على التأليف والتصنيف والترجمة ، فقد زادت ثروته اللفظية والمعنوية ومكنته من صنعته ، ووسع أفقه في الجناس ، والسجع والتورية والاستعارة .

---

(1) ابن الساعى : الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير 9 / 61 ، ترجمة : د . مصطفى جواد، بغداد ط : السريانية الكاثوليكية 1934 م .
(2) الجامع المختصر 9 / 61 .
(3) الخريدة ، قسم الشام 1 / 329 .
(4) معجم الأدباء 7 / 87 .
(5) الوافي بالوفيات 1 / 135 .
(6) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان 8 / 505 ، ط : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الهند 1951م .

openkan.com

وأول ما تمتاز به رسائل العماد ، وتختلف عن رسائل القاضي الفاضل " كثرة استعانته بالاستعارة ، الاستعارة الجزئية لا الصورة التامة المتكاملة الأجزاء ، كما هو الحال وفي كتابة القاضي الفاضل والتي قلنا إنهاأميل منه إلى التشخيص فالعماد أكثر ميلاً إلى الاستعارات المتتابعة التي لا تتحد في صورة واحدة ، كذلك تختلف عن القاضي الفاضل بإغراقه في الجناس بصورة ملحوظة تكاد تخرج عن حد المعقول المقبول المستساغ إلى شيء من التكلف الثقيل على السمع ، وفقراته في السجع أكثر قصرًا ، وسجعاته أكثر تكلفا "[1].

ونظم العماد الدوبيتات بناءً على طلب الملك العادل نور الدين محمود في دمشق عام 568 هـ أيام الجلاد مع الصليبين ، فقال في ذلك : " وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتات في معنى الجهاد " [2] .

وتدور معظم قصائد الديوان حول فنون المديح ، وممدوحوه هم الخلفاء العباسيون ، ويأتي المستضيء بالله على رأسهم من حيث وفرة عدد المدائح ، ومن بين ممدوحيه الملك العادل نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي الذي.خصَّه بالجانب الأعظم من مدائحه وأيضًا له مدائح كثيرة في القاضي الفاضل ، وغيره من رجالات العصر.

ولديه العديد من الأغراض الشعرية ؛ فمنها شعرالبطولة والحرب خاصة بالنسبة لصلاح الدين وفتحه لبيت المقدس ، فقد تغنى الشاعر بهذا الفتح عبر العديد من قصائده ، وشعر الحنين والغربة : وهو يمثل جانبًا أساسياً عنده بسبب

(1) د. محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص 217 – 218 ، منشأة المعارف ، 1968م .
(2) د . كامل مصطفى الشيبي : ديوان الدوبيت في الشعر العربي في عشرة قرون ، دار الثقافة ، بيروت ، 1972م .

كثرة انتقالاته ، وشعر الإخوانيات : وربما ارتبط هذا بالتنقل ومصاحبة الإخوان لحسن الصلة والمودة بين أصدقائه ورؤسائه .

4ـ مؤلفاته :

إن مؤلفات العماد كثيرة للغاية ، فقد ألَّف أكثر من خمسة وأربعين مجلدًا في التاريخ السياسي والأدبي ، والشعر والنثر . ونقل كتابين من الفارسية إلى العربية . ولم تصلنا كل مؤلفاته ، وتتبعها يحتاج إلى مراجعات مستفيضة ، **ولكن أهمها** :

1. خريدة القصر وجريدة العصر[1]: وهو كتاب يترجم للشعراء والأدباء الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس والسادس الهجري في الديار الإسلامية ، ويورد مقطوعات من شعرهم ونثرهم . ويشير إلى ما صنفته في مصر على غرار يتيمة الدهر للثعالبي ، وما أُلف بعدها جاء على غرارها"[2].
2. الفَيْح القُسي في الفتْح القدسي[3] : وجاء في وصف فتح القدس ومعارك صلاح الدين ، وقد طُبع بعنوان "الفتح القسي"والأدق ما ذكرناه ، وهو تاريخ الدولة الصلاحية من أول 583هـ إلى أواسط 589هـ.
3. البرق الشامي :لقد خلف العماد موسوعة أخرى ضخمة تحت عنوان " البرق الشامي " في حروب صلاح الدين بالشام ولها قيمة تاريخية وأدبية كبرى ولكن الذي بقى منها هو الجزء الثالث والجزء الخامس بينما يقع في الأصل

---

(1) وصل كاملاً ،وهو أ قسام طبع منه قسم شعراء مصر ،وشعراء الشام ،وشعراء العراق ، وشعراء المغرب والأندلس ،وشعراء العجم وخراسان .

(2) راجع العماد الأصفهانى حياته وشعره ، ص32 ، 33 ،34.

(3) تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح ، قدم له أ . د . حامد زيان غانم ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر رقم 90 .

في سبعة أجزاء ومن حسن الحظ أن هذه الموسوعة اختصرها الفتح البنداري وسماها " سنا البرق الشامي "[1].

4. تاريخ دولة آل سلجوق[2] :أصل عنوان هذا الكتاب : " نُصرة الفترة وعُصرة الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية " والمختصر الذي وصل إلينا من إعداد الفتح البنداري أيضًا .
5. ترجمة فتور زمان الصدور لأنوشروان بن خالد الوزير ت 532هـ وذلك من الفارسية إلى العربية ، وهو في تاريخ الدولة السلجوقية ، ونقله العماد إلى العراق .
6. ديوان شعر: جمعه وحققه وقدم له ، الدكتور/ناظم رشيد .
7. مجموعة أشعار عمه العزيز : وقد جمعها بأصفهان ،وهي مفقودة .
8. ديوان رسائل في ثلاثة مجلدات : ألَّفه قبل 572هـ ، وهو مفقود أيضًا ، ومنه بعض رسائل فى البرق والفيح القدسى والروضتين وغيرهما من كتب العماد .
9. ديوان دوبيت : أي رباعيته في مجلد صغير،وهو مفقود ونقلت منه بعض أبيات فى البرق الشامى والروضتين ،
10. كيمياء السعادة : عرَّب كتاب كيمياء السعادة لأبي حامد الغزالي في مجلدين وهو مفقود .
11. ذيل الخريدة وسيل الجريدة: في ثلاثة مجلدات ، صنَّفه ذيلا للخريدة ، صار مصدراً لابن خلكان وغيره من المؤلفين ، وهو أيضا مفقود .

(1) من اختصار الفتح البنداري ، تحقيق د . فتحية النبراوي ، ط الخانكي ، مصر 1979 م .
(2) من ا ختصار الفتح البندارى ،تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ،دار الأفاق الجديدة ، د.ت.

obeikan.com

12. عتبى الزمان في عقبى الحدثان : وهو في تاريخ الدولة الأيوبية من وفاة السلطان إلى آخر 592هـ ، وهو ذيل على البرق الشامي ، اختصره البنداري فى آخر المجلد الثانى من سنا البرق الشامى .
13. خطفة البارق وعطفة الشارق : تحدث فيه عن الحوادث ما بين 593هـ وحتى وفاته، واختصره البنداري ، وهو مفقود .
14. البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان : مختصر فى تاريخ الإسلام من المبعث إلى 593هـ ، والكتاب مخطوط .
15. نحلة الرحلة وحلية العطلة : تحدث فيه عن اختلال الأمور بعد موت صلاح الدين ، وهو ذيل على البرق الشامى ، موجود جزء منه فى الروضتين .
16. تعليقاته من مناظرات أبي الوفا على بن عقيل الحنبلي لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالكيا الهراسي ، وهي مفقودة .
17. تعليقاته من مجالس وعظ قطب الدين أبي منصور المظفي بن أردشير العبادي ت 547 هـ ، وهي مفقودة .